سير الزمان

السيطرة على البحر المتوسط

تاريخ المشكلة وأدوارها

للسنيور لويجي فديرزوني

محمد علي والامبراطورية العربية

لفريد سمبر

السيطرة على البحر المتوسط

تاريخ المشكلة وأدوارها [1]

لم تعرف لبحر المتوسط مشكلة ما ، قبل ثلاثة قرون ، لان هذا البحر وحده دون غيره كان يلتقي لسواحل البلدان التي قامت فيها الحضارات القديمة في هذا الجانب من الكرة الارضية — حضارات مصر وفينيقية وكريت واليونان والرومان وقرطاجنة . فالتاريخ بأسره ، او على الاصح تاريخ هذه البقعة من الارض ، كان يتجه الى البحر المتوسط دون غيره ، ويلتقي عنده . واذن يصح القول انهُ انقضت الوف السنين قبل القرون الوسطى ، كان البحر المتوسط فيها عالماً قائماً بنفسه او كان هو العالم كلّهُ . على شواطئه وسواحله ، قامت دول اثر دول وتعاقب الحكّام على هذا السُلّك المحدود بشواطىء القارات الثلاث اوربا وافريقيا وآسيا . وما نقلهُ الينا التاريخ عن محاولة بعض الشعوب ، كالفينيقيين ، تعدي حدودهُ عند اعمدة هرقل (جبل طارق الحديث) طلباً للبلدان التي وراءها ، كان في الغالب محاولات فردية بقصد التجارة لا بقصد السيطرة ، والمعرفة التي جنيت من هذه الرحلات طويت في صدور اصحابها . فالوصول الى جزائر كاسيتريدس الثرية بالمعادن زالت من ذاكرة الانسان بزوال الفينيقيين

ثم جاء عصر المكتشفات الجغرافية العظيمة ، وهو عهد عجيب من النشاط الانساني ، كان من شأنهِ نقل محور الحياة الانسانية من موقع الى آخر . تصبى الناس حينئذٍ نحو قرنين من الزمان ، ومسالك الفتح والكسب تفتح امامهم الى آفاق واسعة بعيدة ، وكان يحدوهم حبُّ المغامرة والمخاطرة ، ويسيهم سحر الرغبة في الثروات الطائلة ، يفوز بها الفائز من المغامرين . ان الصورة التي رسمها المؤرخون للشرق الادنى في العصور الوسطى ، وقد اجتمعت فيه الحرائر والعطور والافاويه ، لابثتْ على الفتنة من القصص الحديثة عن بلدان تفيض ذهباً ونفطاً

وما دالت دولة الامم البحرية في البحر المتوسط ، على اثر هذه المكتشفات الجغرافية ، حتى تسلمت دول الشمال مقاليد السيطرة البحرية ، حتى لقد تجرأ بعضها ان يناجز اساطيل اسبانيا المنيعة التي حافظت بها على سيادتها في البحر المتوسط من جبل طارق الى مضيق سيفا . ومضى قرنان ، دار فيهما النزاع في سبيل انشاء طبقة الامبراطوريات الجديدة ، وكان هذا النزاع في الغالب على متن المحيطات ، على ان البحر المتوسط ، اهمل امرهُ ، وأصبح في الانقلاب العالمي الجديد ، وكأنهُ بحيرة لا شأن لها . فلما بلغت مغامرات المغامرين حدَّها في اميركا الشمالية وأميركا

---

(١) من مقال في مجلة « الشؤون الخارجية » للسنيور لويجي فيرزوني رئيس مجلس النيوخ الايطالي

الجنوبية : الجهت اوربة ثانية . الى اختراق الحجب المسدلة على بلدان آسيا ، وكانت اقرب السبل الى آسيا ، عبر البحر المتوسط

قلّ في ذلك العصر ، من ادرك هذه الدورة التاريخية التي تقدم وصفها ، وسبر بين الامم من كان له خطة خاصة ونهج معين — مع ان الدلائل تدل على ان اوليفر كرومويل كان قد ادرك بنافذ بصيرته سير الحوادث المترقّب

فالامم في الغالب تسيّر الى اغراض بعيدة مجهولة ، بدافع من فطرتها وباعث من رغبتها في تحقيق بعض الاغراض القريبة . وكانت انكلترا حينئذٍ ، في عزّ شبابها القومي ، واشدّ تدرّ لاسبانيا القاهرة ، فاقتحمت انكلترا بخليط من دافع الفطرة وباعث الكسب القريب ، بان السبيل الوحيد لهدم سيادة عديدتها ، لايكون الاّ بضربها في المركز الحساس في حياتها ، اي البحر المتوسط . وكذلك نرى نشاط انكلترا في البحر المتوسط ، مظهراً من اهم مظاهر الحياة في تاريخها الحديث. فكانت انكلترا تقتنم كل فرصة وكل عذر لتمكن نفوذها فيه . وكانت حرب وراثة العرش في اسبانيا ، في اواخر القرن فأضيفت خصومة فرنسا الى خصومة اسبانيا ، ولما حاول الاميرال روك Rooke الانكليزي ان ينزل جنوده الى البر في طولون واخفق ، حاول ان يستر اخفاقهُ بعمل يستوقف النظر ، فاحتلّ صخرة جبل طارق ، وكانت حاميتها الاسبانية حينئذٍ ضعيفة لاتقوى على المقاومة . وكذلك استطاع الاميرال روك وهو لايعلم ان يكسب لانكلترا ، مفتاحاً ، يفتح لها طرقاً جديدة وآفاقاً جديدة لسياستها البحرية الامبراطورية

ومن النادر ان نجد في تاريخ الاعمال الحربية ، عملاً كان لهُ من التأثير في تاريخ اوربا الحديث ، ما كان لاحتلال جبل طارق

فتاريخ احتلال جبل طارق (٤ اغسطس ١٧٠٤) هو بدء المشكلة المعروفة بمشكلة البحر المتوسط

ورثت انكلترا ، باحتلالها جبل طارق ، السيادة على البحر المتوسط ، الطريق الدولي الرئيسي ومقرّ المزاحمات الدولية الكبرى . وادركت انكلترا ، قيمة هذا الارث ، فسعت خلال القرون الثلاثة الماضية ، سعياً متواصلاً الى المحافظة على هذه السيادة وتعزيزها ، غير مدخرة لذلك ، قوة ولا مالاً ولا جرأة ولا دهاء . ولكنها في كل عمل عملتهُ لتحقيق هذا الغرض ، كانت تلقي على عملها ستاراً من البواعث الادبية العامة لتسويغه

ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر وصف عمل انكلترا في البحر المتوسط ، بانهُ تم في سبيل تحرير الشعوب من استبداد الكاثوليكية الاسبانية . وفي عهد الثورة الفرنسية وحروب نبوليون سوّغت عملها بالدفاع عن النظام ومبدإ الملكية في اوربا . ثم اعلنت في عهد تالي ضرورة التصدي لخطر نزوح المارد الروسي الاوتوقراطي الى سواحل بحري ايجه والادرياتيك . وجعلت

عذرها في الحرب الكبرى الكفاح مع النزعة العسكرية . وهي اليوم تلبس عملها لباس الدفاع عن النزعة السلمية المتجسمة في جامعة الامم

هذه المسوغات الادبية المتباينة تحمس لها جانب كبير من الرأي العام البريطاني وطوائف من الرأي العام في سائر الامم . ولكنها كانت في كل حالٍ ستاراً تستتر به مصالح بريطانيا الامبراطورية

ومما امتاز به الشعب الانكليزي مقدرتهُ على تغيير موقفهِ السياسي ليلائم الاحوال السائدة . ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر ، عمدت انكلترا الى انشاء محالفات بين الدول في سبيل تعزيز سيادتها في البحر المتوسط ، بل وفي العالم. فلما كان نظام توازن القوى النظام الذي ساد اوربا في القرن التاسع عشر ، عمدت الى خطة العزلة والاحتفاظ بأسطول يساوي في قوته اسطول اية دولتين من دول اوربا . وفي العقد الاول من هذا القرن اعتمدت على المحالفات الدفاعية ، ثم لما وضعت الحرب أوزارها لاذت بفكرة التعاون الدولي عن طريق الجامعة ، لان الجامعة في نظر الطبقة الحاكمة في انكلترا ، تجمع بين اكبر قسط من الفائدة في تأييد مقامهم وأيسر قسط من الخطر ، علاوة على انها تتفق مع النزعة الادبية البروتستانتية في ان الجامعة ملاذ العدل الدولي وموئلهُ

فتاريخ انكلترا في البحر المتوسط يمكن ان ينقسم الى اربعة ادوارٍ

١ — عدم سيادة الدول الاخرى عليهِ

٢ — الحيلولة دون سيادة دولة جديدة

٣ — انشاء امبراطورية استعمارية لبريطانية قاعدتها البحر المتوسط

٤ — المحافظة على مقامها الامبراطوري المتفوق وتعزيزهُ

فالدور الاول بدأ يوم اقبلت انكلترا على البحر المتوسط لتناجز فيهِ اسبانيا وفرنسا في عقر دارهما ، فلما وضعت معاهدة اوترخت كانت نتيجتها تغيير التوازن الاوربي في صالح تفوق بريطانيا البحري في البحر المتوسط ، وكان من اثر ذلك تفوقها عليهما في المحيط الاطلنطي كذلك

اما في الدور الثاني فقد سعت انكلترا الى القضاء على كل عمل فيهِ تهديد لسيادتها في البحر المتوسط بل ولامبراطوريتها الاسيوية التي كانت في دور التكوين حينئذٍ . فوجّه النزاع اولاً الى مطامح نبوليون الشرقية ثم الى مساعي الملكية الفرنسية بعيد نبوليون اذ حاولت احياء خطتها القديمة بالاستيلاء على شمال افريقية . فحملة نبوليون الى مصر كان الغرض منها تهديد الهند وهي حينئذٍ قلب الامبراطورية البريطانية الجديدة . ومن ذلك الوقت اصبحت الهند والبحر المتوسط حلقتين لا انفصام لهما في سياسة بريطانيا . ولكن موقعتي ابو قير والطرف الاغر قضتا على حلم نبوليون . ثم حاول الملك شارل العاشر أن يبعث خطة فرنسا القديمة في البحر المتوسط باحتلال

الجزائر ولكن ثورة يوليو سنة ١٨٣٠ وهي ثورة رجحت كفة الانكليز صبح في إثرها حانت دون احتجاج منهم لحظة النجح السريع واستمر النزاع بين بريطانيا وفرنسا حتى في وضح النهار وآذا خلف ستار الى ان سوّي في الاتفاقات التي عقدت بينهما سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠٤

وكان كفاح بريطانيا ضدّ استيلاء روسيا على الاستانة والمضايق اشدّ من كفاحها ضدّ فرنسا . فالاستيلاء على الاستانة يكمل لروسيا نظاماً دينيًّا اشتوقراطيًّا والاستيلاء على المضايق يفتح لها منفذاً الى البحر المتوسط . وليست حرب القرم الاّ نتيجة من نتائج هذا النزاع على البحر المتوسط . وقد أسفر هذا الدور من النزاع عن انشاء قاعدة بحرية في مالطة واقفال المضايق في وجه الاسطول الروسي واحتلال بعض الجزائر الايونية ثم التنازل عنها لليونان هدية الى اسرتها المالكة الجديدة الدانماركية الاصل

وامتدّ الدور الثالث الى ما بعد الحرب الكبرى واهمّ حوادثه احتلال تركيا وفتح قناة السويس . وفي خلاله بسطت انكلترا نفوذها فضمّ البقعة الواقعة بين البحر المتوسط والبحر الاسود والمحيط الهندي وهي البقعة التي تصل بين اوربا والهند

استعملت انكلترا مصر ، ملتقى لطريق المواصلات بين القاهرة ومدينة الكاب ، وبين بورسعيد وسلايا . وعلى ذلك أصبح البحر المتوسط العقدة العصبية الرئيسية ، من الناحية السياسية والعسكرية ، للامبراطورية البريطانية قاطبة . فسار الاستعمار البريطاني مخترقاً صحاري إفريقية وحراجها وأدغالها من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال ، معتمداً في ذلك على خبرة من أخبرهم الامة البريطانية . وكان الاحتلال يتبع الاستكشاف الجغرافي . وما لبث ان اصبحت محطات التجارة التي انشأها التجار على سواحل المحيط الهندي عواصم لمستعمرات جديدة . فلما انتهت حرب السودان وحرب البور كانت قدم انكلترا قد رسخت في طرفي الخط الواصل بين القاهرة ومدينة الكاب . وبقيت بضع حلقات في هذه السلسلة لم يستول عليها البريطانيون الاّ بعد الحرب الكبرى ، وهي مستعمرات المانيا سابقاً التي عهدت جامعة الامم في الانتداب عليها لبريطانيا

وقد اصطدمت بريطانيا في خلال تحقيق كل هذا بفرنسا في فشوده ثم ازيل اثر هذا التصادم في الاتفاق الذي عقد بينهما على اقتسام افريقية اقتساماً سلميًّا فاعترف لانكلترا بتفوق مصالحها في شرق افريقيا ولفرنسا بتفوق مصالحها في غربها فكفّت بريطانيا يدها عن مراكش وكفّت فرنسا يدها عن مصر

وكذلك تمّ الاتفاق الودّي بين فرنسا وانكلترا وغرضهُ القضاء على النزعة الالمانية الامبريالية في مهدها وتبديد خطرها على طرق المواصلات بين اوربا وآسيا . ومبالغة في الاستعداد لمنع الروس

من الوصول الى البحر المتوسط عن طريق الاسكندرونة احتلت انكلترا في سنة ١٨٧٨ جزيرة قبرس، ولكن روسيا لم تثبت ان بدّدت قواها في سواحل منشوريا في حربها مع اليابان . وبعد الثورة البولشفية وقيام حكومة السوفيت فيها ، زالت روسيا كعامل فعال في النزاع الدائر حول البحر المتوسط . الاّ ان اتجاه ايطاليا الى بغداد قبيل الحرب الكبرى ، كان اكبر خطراً على مواصلات بريطانيا في البحر الاحمر من عمل اية دولة اخرى . فجاءت الحرب الكبرى وقضت عليه . ومع ذلك عزمت انكلترا ان تنشىء طريقاً برية من البحر المتوسط الى المحيط الهندي ، ومكّنتها معاهدة سيڤر من ذلك

ولكن حساب الحقل لم يأتِ موافقاً لحساب البيدر (الجرن) فانها انتزعت أزمير والمنطقة المحيطة بها من نطاق نفوذ ايطاليا بعد ما وعدت بها ايطاليا في اتفاق « سان جان مورين » وعهدت بها الى اليونان . ولكن الاتراك بزعامة مصطفى كمال قلبوا الخطة التي وضعتها انكلترا وظنّت انها اصابت النجاح في وضعها، واستولوا على ازمير وطردوا اليونان من الاناضول

الاّ ان هذا الانقلاب لم يكن باعثاً على قنوط انكلترا . فلما عقدت معاهدة لوزان رأت انكلترا ان تستعمل البلدان العربية الخاضعة لانتدابها في سبيل هذا الغرض الامبراطوري . فعهد الى الدول العربية في حماية طريق المواصلات البري بين البحر المتوسط وخليج فارس . وكانت فلسطين مبدأ الخط ، لانها تصلح ان تحلّ محلّ مصر اذا اقتضت الحال ذلك . فقناة السويس يمكن الدفاع عنها من الغرب ، اي من مصر، كما يمكن الدفاع عنها من الشرق اي من فلسطين . حتى اذا فقدت انكلترا السيطرة على القنال، فالعقبة تحلّ محلّ السويس وحيفا تصلح لان تكون قاعدة بحرية ومرفأ يصدر منهُ نفط الموصل . ثم ان انشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين يمكن ان يستعمل لاغراض سياسية في زرع بزور الشقاق بين مسلمي فلسطين ومسيحييها . وقيام امارة شرق الاردن يفصل فلسطين عن الكتلة العربية في الجزيرة وما وراءها . وقد بلغ من نجاح سياسة انكلترا في العراق انها لم تمانع في الاعتراف باستقلاله

***

وهذا يفضي بنا الى الدور الرابع ، وهو الدور الذي تسعى فيه انكلترا ، الى ترسيخ سيطرتها على البحر المتوسط قاعدة بنائها الامبراطوري . ولكن لندن ترى ان العوامل التي تستطيع ان تزعزع اركان « السلام البريطاني » في البحر المتوسط ثلاثة هي النزعة القومية المصرية، ونهوض تركيا ، وقيام ايطاليا الفاشستية . وبعد ما اشار الكاتب الى العاملين الاولين في بضع عبارات ، افاض في اسرار النزاع بين ايطاليا وبريطانيا ، وهو بحث اقرب الى سياسة المناقشة منهُ الى تاريخ السياسة لذلك اكتفينا من مقاله بما تقدم

محمد علي والامبراطورية العربية (١)

لامين سعيد

لم يمن الذين دونوا تاريخ محمد علي من الاجانب والترك او المصريين ببحث هذه الناحية من تاريخه فاكتفى الاولون بذكر سيرته ، ووصف بطولته ، واصلاحاته ، وعني الآخرون بتشويه صورته ، والانتقاص من قيمة عمله ، اما المصريون فدرسوا تاريخه من الناحية الاقليمية الخاصة بمصر وحدها وبين ايدينا الآن كتابان حديثان اولهما تاريخ الحركة القومية بمصر للاستاذ عبد الرحمن الرافعي والثاني الامبراطورية المصرية للدكتور محمد صبري وقد حاول كل منهما ان يصبغ الحركة بالصبغة المصرية المحلية من دون ان يعنى بدرس الناحية العربية منها مع ان في كتابيهما كثيراً من النصوص والمذكرات والوثائق السياسية التي تثبت ان محمد علي وابنهُ ابراهيم كانا يعملان لانشاء امبراطورية عربية تضم الاقطار الممتدة من حدود الجزائر غرباً حتى ديار بكر وخليج فارس شرقاً ومن جبال طوروس شمالاً حتى اواسط افريقية جنوباً وبذلك تدخل في دائرتها جميع الاقطار التي ينطق ابناؤها بالضاد وهي الجزائر وتونس وطرابلس الغرب وبرقة ومصر والسودان والشام والعراق وخليج فارس ونجد والحجاز واليمن ولا يبقى في خارجها سوى المغرب الاقصى لانهُ كان خارجاً عن نطاق الامبراطورية العثمانية وهو القطر العربي الوحيد الذي لم يخضع للاحتلال العثماني ولم يفقد استقلاله

ولقد عنينا في هذا الفصل باثبات الوثائق والمراسلات السياسية والمذكرات والاقوال التي عثرنا عليها في بطون الكتب التي نشرت عن محمد علي وابراهيم مما لهُ صلة ببحث الامبراطورية العربية وسيتبين القارىء منها ان هذين البطلين العظيمين سعيا لانشاء امبراطورية عربية تكون القاهرة عاصمة لها تنهض بالعرب وتجدد مفاخرهم ، وتهيىء لهم سبل التقدم فينهضوا من الهوة السحيقة التي اوصلهم اليها الحكم التركي ويلحقوا بالامم الاوربية في نموها ورقيها وكانت نهضة اوربا حينئذٍ في ابتداء اشراقها

لما جاءت الاخبار الى القاهرة باستيلاء ابراهيم باشا على دمشق وزحفه الى حلب استأجر محمد علي باشا سفينة فرنسية لتحمل منهُ رسالتين الاولى الى حاكم مالطة الانكليزي والاخرى من قنصل فرنسا بمصر الى حكومته . وهذا ماجاء في رسالة القنصل الى المسيو مسيتياني وزير خارجية فرنسا يومئذٍ قال :

« ان محمد علي لم يستأجر السفينة الفرنسية لتحمل الى مرسيليا ومنها الى اوربا خبر فتح

---

(١) من فصل من كتاب « الدولة العربية المتحدة : الجزء الاول » تأليف امين سعيد

دمشق ولكنهُ استأجرها لتحمل منهُ رسالة الى الحكومة الانكليزية بواسطة حاكم مالطة لانهُ لا يثق بالقنصل الانكليزي بمصر ويعتقد أنهُ يتلاعب بالاعراب عن افكاره وآرائه

« ولم يسلمني رسالة مكتوبة ولكنهُ املى عليَّ افكاره التي يريد ان يعرضها على وزير الخارجية وهي :

« يرى محمد علي ان تركيا واصلة حتماً الى ازمة من الازمات الكبيرة التي يتقرر بها مصير الامم والدول . وانهُ يتم الآن الانفصال بين شطرين من السلطنة تقضي الحوادث والانظمة والضرورة والاقدار بفصل احدهما عن الآخر (يريد انفصال بلاد الترك عن بلاد العرب)

« وكان في الامكان تلافي ذلك لولا غفلة السلطان لان محمد علي كان يود دائماً — على الرغم من انفصال احد الشطرين عن الآخر بالفعل والواقع — ان يظل التابع الخاضع الخاص ولكن العناية ارادت غير ما اراد فالآن قد تم انشاء المملكة العربية . والبلاد العربية هي مهبط الوحي وهي تحتضن الاماكن المقدسة وفيها مقر الخلافة وتطوقها الجبال من كل جانب كالاسوار ، واذا اضطرت للدفاع عن نفسها انشأت القلاع والحصون التي يتضاعف عددها

« واليوم ينتظر ان يرمي السلطان وجيشه على اسطول محمد علي وجيشه فيكون مصير اسطول السلطان وجيشه السحق فلماذا يستمر هذا القتال الذي لا فائدة منهُ ؟ واي امة اوربية تجد فيه ربحها ؟ فلا هي فرنسا ولا هي انكلترا ولا النمسا ذاتها وذلك للاسباب التي يعرفها الجميع ولا يجهلها احد

« والدولة الوحيدة التي يهمها سقوط الدولة العثمانية هي روسيا ويقوم الدليل على ذلك بدفعها الباب العالي بكلتا يديها ضد محمد علي مع اعلان الغضب والسخط عليه وتملكت الدهشة الباب العالي فلا يعمل شيئاً الا بنصيحة روسيا وأوامرها وروسيا تعرف ان مصر صارت قوة وان هذه القوة تؤيد عند الحاجة الباب العالي ضدها . وتملك الباب العالي الجنون فانساق لارادتها ضد الشعور القوي الحي في السلطنة ولذلك تريد روسيا ان يمزق بعضنا بعضاً

« فهل تسمح فرنسا وانكلترا بأن تحفر السياسة الخادعة هذه الحفرة ليتردى فيها الجهل والغباوة ؟ ان عليهما وحدهما وعلى رأيهما ووساطتهما تتوقف الحيلولة دون الدسائس فاذا فعلتا كان عملهما خدمة للباب العالي ذاته وللسلام والانسانية

« ان محمد علي وان كان امين فهو لا يطلب — والنصر حليفه — الا ما كان يطلبه قبل القتال فلا يمتد نظره الى اكثر من الحاق سورية حتى حلب بمصر تحت سيادة السلطان وعلى شروط موافقة للسلطان كل الموافقة . اما اذا ترك قياد السلطان لصديق ماكر فقد تكون النتيجة عليه بلايا شديدة

« وهل من يشك الآن في ان الانتصار في سهول حلب بفضل عبقرية ابراهيم العسكرية ،

وبفضل تفوق العرب وبفضل فوز الاسطول المصري سوف يمرر مصير الاستانة »

وفي يوم ٣ فبراير سنة ١٨٣٣ كتب ابراهيم باشا عند وصوله الى كوتاهية في طريقه الى الاستانة يقول الى والده : أرى ان يكون الاستقلال مقدماً على كل شيء في المناقشات التي تدور بينك وبين الرسولين (مورافيف مندوب روسيا وخليل رفعت باشا مندوب الباب العالي)

« فمسألة الاستقلال مسألة حيوية تقدم على كل شيء . وبعد الاعتراف بالاستقلال يجب ان تطلب اضاليا وادنه وجزيرة قبرص وان تضم الى مصر — اذا كان ذلك بالامكان — تونس وطرابلس ، ذلك اقل ما يجب ان نطلبه ولا نتساهل في اي شيء كان مهما كان الامر لان مصلحتنا تقضي به

« اما اصرارنا على طلب الاستقلال فلكي نوطد مركزنا ونحوطه بالضمانات فاذا لم ننل الاستقلال ذهبت جميع جهودنا ضياعاً ، ومكثنا تحت يد هذه الحكومة الخبيثة التي توقرنا بمطالبها الدائمة وبطلب المال ، فنن الآن يجب ان نتخلص من الاعباء الباهظة ولا خلاص الاَّ بالاستقلال

« والذي يدعونا لطلب اضاليا وادنه هو شدة حاجتنا الى الخشب ، لان مستقبل اسطولنا معلق على ذلك ، ما دامت بلادنا محرومة من الخشب ، وأنت تذكر ان انكلترا منعت اصدار الخشب الينا فاضطررنا ان نلجأ الى النمسا التي ازعجنا رفضها اصداره ازعاجاً لا نستطيع لسيانهُ. وأما ضم قبرص الى مصر فهو ايضاً لازم لا مندوحة عنه لسببين : الاول لتكون مركزاً لاسطولنا والثاني لمنع الباب العالي من ان يكون له طريق الى املاكنا واذا شئت ان تطلب بغداد فلا مانع من طرح هذه المسألة على بساط البحث »

يقول عبد الرحمن الرافعي في كتابه تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر في الجزء الثالث ما نصه : « ومن الراجح الذي تؤيده الحوادث ان يشروع محمد علي كان يتناول انشاء دولة عربية مستقلة في مصر تضم اليها البلاد العربية في افريقية وآسيا ، ففي افريقية قد استقل بمصر وفتح السودان ، وفي آسيا تمم معظم جزيرة العرب ، وبسط عليها نفوذ الحكومة المصرية ويطموحه الى سورية اراد ان يؤسس الدولة المصرية الكبرى

ويزيد هذه الفكرة رجحاناً تصريحات فاه بها ابراهيم باشا في خلال الحرب السعودية فقد ذكر المسيو كادليفن وبارد في كتابهما انه بينما كان الحصار مضروباً على عكا سئل ابرهيم باشا الى اي مدى تصل فتوحاته اذا تم له الاستيلاء على عكا فقال ما معناه « الى مدى ما يتكلم الناس واتفاهم واياهم باللسان العربي »

وقابل البارون « لبو الكونت » ابراهيم باشا قرب طرسوس سنة ١٨٣٣ بعد عودته من

كوتاهيه فحادثهُ حديثاً طويلاً وكتب عنهُ يقول : « يجاهر ابراهيم باشا علناً بانهُ يقوي احياء القومية العربية واعطاء العرب حقوقهم ، واسناد المناصب اليهم سواء في الادارة ام في الجيش ، وان يجعل منهم شعباً مستقلاً ويشركهم في ادارة الشؤون المالية ، ويردّدهم سلطة الحكم كما يتحملون تكاليفه

« وتتجلى فكرته هذه في منشوراته ، ومخاطباته لجنوده في الحرب السعودية الاخيرة ، فانهُ لا يفتأ يذكرهم بفاخر الامة العربية ومجدها التالد ، ويتصل بهذا المعنى مفاخرته بان كل البلدان العربية يجب ان تنضم تحت لواء ابيهِ . وقد قال لي ان اباه يحكم مصر والسودان وسورية ومن الواجب ان يضم العراق الى حكمهِ وان جزيرة العرب تابعة لابيهِ الذي يمسن الآن على اتمام فتحها

« وهو في صلاته مع اهل البلاد يستخدم اللغة العربية ، وبعد نفسه عربيًّا ، ولذلك لا ينفك يطعن في الترك ، وقد لاحظ عليهِ ذلك احد جنوده وخاطبهُ بتلك الحرية التي كان يشجع رجاله عليها وسأله كيف يطعن في الترك وهو منهم فأجابهُ على الفور « انا لست تركيًّا . فاني جئت مصر صبيًّا ومنذ ذلك العهد قد مصرتني شيمها وغيرت من دمي فجعلتهُ دمًّا عربيًّا ؟ »

وفي شهر مارس سنة ١٨٣٣ اي في اثناء الفترة التي كان فيها الجيش المصري يهدد الاستانة ارسل محمد علي باشا الى قنصلي انكلترا وفرنسا في مصر الكتاب الآتي :

« انهُ بما لي من القوة التي استمدها من شعبي ومن القانون المقدس والفتاوى الشرعية الموجهة اليّ من جميع علماء البلاد العربية قد اصبح من واجبي الذي لا محيد عنهُ ان اوطد اركان حكومتي ومكانة قومي بجميع الوسائل . وما تلك الوسائل سوى الحصول على كل البلدان التي اطلبها وهي البلاد التي استوليت عليها

« وبما اني قد بذلت في سبيل ذلك وقتاً طويلاً وجهوداً جهيدة فمن الواجب على الاقل ان يتركوا لي في هذا الكون شيئاً من الشهرة وان يحملني حب الراحة على ارتكاب عار التخلي عن شعبي الذي وضع كل ثقتهُ بي ، بل اني سأكون سعيداً بأن أموت شريفاً في سبيله . فأرجو والحالة هذه من دولتي انكلترا وفرنسا ان تتخذا نحوي قراراً مطابقاً للعدالة والانصاف ولمصالحهم الخاصة »

وفي يوم ٨ مارس سنة ١٨٣٣ ارسل محمد علي الى البارون روسان سفير فرنسا في الاستانة الكتاب الآتي ردًّا على كتابه اليهِ قال :

« تقول يا سعادة السفير في كتابك المؤرخ ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٣ انهُ لا حق لي بالمطالبة الاّ ببلاد عكا والقدس ونابلس وطرابلس الشام وانهُ لذلك يجب عليّ ان استرد جنودي حالاً من البلاد الاخرى وتنذرني بسوء العاقبة اذا رفضت ذلك . كما ان رسولك البلغي شفاهاً وبناء

على التعليمات التي زودته بها اني اذا بقيت مصرًّا على التمسك بمطالبي فان الاسطولين الانكليزي والفرنسي يتظاهران امام الشاطىء المصري

« فأي حق يجوز لك باسعادة السفير ان تعمل على تجريدي مما غنمته ؟ ان شعبي بأسره يعضدني به ولو شئت لناديت الرومليين والاناضوليين الى الثورة ولو شئت لأحدثت حدثاً عظيماً في تركيا بمساعدة الشعب الشامي

« ومع اني امسيطر على ولايات عديدة والنصر حليفي فقد اكتفيت بأخذ سورية التي اقيم فيها بقوة السلاح ومساعدة الرأي العام ، وأوقفت جندي عن التقدم ولا قصد لي سوى عدم اراقة دم اتترك عبثاً وعدم اغضاب دول اوربا فكانت المكافأة على هذا وعلى التضحيات العظيمة التي قدمها شعبي الذي مكنني بمساعدته الفعالة من الحصول على انتصارات باهرة ، ان أطالب الآن بالتخلي عن البلاد التي استوليت عليها وان استرجع جيشي الى منطقة صغيرة يسمونها باشاوية ! ألا ترون بذلك انكم تصدرون علي الحكم بالموت السياسي ، ان لي وطيد الامل بأن فرنسا وانكلترا لا تأبيان معاملتي بالانصاف والاعتراف بما لي من الحقوق ان شرفهما يقضي بذلك

« اما اذا كنت مخدوعاً فيما املت فاني سأطيع قضاء الله لا غير وسأفضل الموت على احتمال الضيم وسأقدم نفسي بكل ابتهاج فدى لمصلحة قومي ، وأشعر بأني سعيد بأن اخدمهم حتى اغيب في لحدي . هذا هو قراري الذي وطنت النفس عليه »

وفي تلك الفترة كتب اللورد پامرستون وزير خارجية انكلترا الى السر ويليام كامبل سفير انكلترا في كابل يقول :

« ان الشروط المعروضة على محمد علي باشا حسنة جداً (يريد بها الشروط الخاصة باعطائه ولاية عكا) ما دامت تحرمه من دمشق وحلب وهما الطريق الى العراق . وفوق هذا يجب ان يثبت كل سنة في ما اعطى له وان كان تثبيته في مصر دائماً

« لقد كان محمد علي يرمي الى تأليف مملكة عربية تجمع بلاد العرب والمشروع جليل الشأن بذاته لولا انه يقضي بتقسيم تركيا وهذا لا يمكننا ان نسلم به فتركيا هي افضل دولة تملك طريق الهند وهي خير من اي ملك عربي يقوم على هذه البلاد ويكون ذراعاً للعمل كثير الحركة

« والواجب علينا ان نساعد السلطان في اعادة تنظيم جيشه واسطوله وماليته ، فاذا استطاع ان يعيد النظام الى تلك الولايات الثلاث استطاع البقاء »

وكتب بوغوص بك نوبار الذي كان يتولى ادارة ديوان الخارجية في حكومة محمد علي الى قنصل النمسا بمصر في سنة ١٨٣٤ يقول .

« لا شك أنك عرفت الميول العدائية التي اظهرها الباب العالي حديثاً ضد مصر فهو يجمع

منذ بضعة شهور بدون سبب ظاهر جيشاً ضخماً في سيواس بقيادة الصدر الاعظم رشيد باشا مع ان سموه (اي محمد علي) ارسل مندوبه لاتمام المباحثات بشأن الجزية التي تدفع وبشأن الجلاء عن ادنه التي امر ابراهيم باشا باحتلالها موقتاً ليصد بعض القبائل البدوية المتمردة . وفي خلال ذلك اخذ الباب العالي يوزع الاموال بواسطة عبد الله باشا والي عكا السابق لاثارة الفتن والثورات في جبل نابلس وخليل الرحمن والقدس وقد عمت الثورات تلك الجهات وتطلب اخمادها مجهوداً استمر ثلاثة اسابيع

« ولما وصل الى محمد علي خبر هذه الحركات الدائبة ابلغ قناصل الدول انهُ قد يرى نفسه مضطراً الاعلان استقلاله لان الباب العالي لا يرضيه سوى هدمه سياسيًا والجميع يعرفون ان سموه لم يطلب في حين من الاحيان استقلالاً ، والتفرقة التامة الدائمة بين الوطنين العربي والتركي هو الضمان الوحيد العام من التتائج المهلكة من جراء حرب اهلية ومن غزوة اجنبية

« واذا اعترف باستقلال سموه فانهُ يستطيع بعد هذا الاعتراف ان يحصر همه في تنظيم ماليته وفي حشد ١٥٠ الف جندي منظمة تنظيما كاملاً فيتمكن من القيام بالمهمة الكبرى وهي انقاذ تركيا من روسيا »

ولما اطلع مترنخ (وزير خارجية النمسا يومئذ) على هذا الكتاب كتب الى سفيره في بطرسبرج يقول : اننا لسنتج من اعتراف محمد علي انهُ يريد امرين : استقلاله التام عن الباب العالي وانشاء الدولة العربية »

وفي ٦ فبراير سنة ١٨٣٣ كتب الكولونيل تايور قنصل انكلترا في بغداد يقول : « ان هذه الولاية (ولاية بغداد) هي الآن في اشد حالات البؤس والضيق تحت حكم علي باشا الذي كان قبل مجيئهِ الى بغداد والياً على حلب

« ان انظار الشعب العربي متجهة في هذه الفترة نحو ابراهيم باشا وهو محبهُ »

وفي ١٦ يوليو سنة ١٨٣٣ كتب الهر بروكمي اوستن معتمد النمسا بمصر الى الكونت مترنخ يقول:

« ان اسباباً عديدة تثبت ان فكرة تأليف الامبراطورية العربية لا تزال حية ولا تزال موجودة ، ولكن اوى الى جانب العقل المدبر ، عقل محمد علي ، المطامع الواسعة والهمة العالية في صدر ولده وخليفته ، فابراهيم باشا ابن هذا العصر وقد تربى تربية عصرية عالية وتنزه عقله عن الانطباع على الخضوع لسلطان بحكم المبادىء الدينية

« وارى الى جانب ضعف الباب العالي وهزاله جيشاً عربيًا قويًا ممرناً على احدث مبادىء القتال ، وارى اسطولاً قويًا ، وكلا الجيش والاسطول يسهل مضاعفتهما . اضف الى هذا كله يقظة الروح العربية بعد سباتها فمحمد علي يتمتع بحسن السمعة والصيت في جميع البلاد العربية »

وعثروا في محفوظات وزارة الخارجية البريطانية على تقرير قدم الى محمد علي بين سنة ١٨٣٢ و ١٨٣٣ عن انشاء الامبراطورية العربية هذا نصه :

« إن اصدق ترتيب وافضل تنظيم هو ان تؤلف المملكة العربية من مصر وبلاد النوبة وسنار ودارفور وكردوفان في افريقية ومن بلاد العرب كلها حتى الخليج الفارسي ومن الشاطىء الشرقي لنهر الفرات مع دخول سورية في هذه المنطقة

« فاذا تم ذلك يحيكم العالم العربي كما يحيي الناس للخلافة الاسلامية وللخلفاء الراشدين وكما يحيي الرجل الذي ارسله الله لانقاذ الاسلام ، وينظر اليه كل عربي كقبلة لآماله وآماله

« وهذه الروح الدينية والسياسية قد تحولت اليكم ، وهذا شريف مكة هو اول المحيين بقوتكم وعظمتكم والرأي العام يؤيدكم بأصدق امانيه ودعائه ولا ريب ولا شك في افضلية وسائلكم على ما عند الباب العالي

« وبلوغ الغرض يجب البدء بمفاوضة اعيان بغداد وزعماء الشعب على الشاطىء الشرقي للفرات . ولا يعارض الانكليز في التقرب من شيوخ الخليج الفارسي وتستطيعون حماية التجارة والصناعة والدين في تلك البلاد بفضل نفوذكم — ونحن نثق بتقربكم حلول نكبة في استانبول ، فانكلترا وفرنسا لا تستطيعان الحيلولة دون ذلك والنمسا وروسيا لا تريدان هذه الحيلولة ومن ذلك تكون خطتكم الدفاع تتدع تركيا اوربا وشأنها وما هو واقع وراء جبال طوروس لما تقرره اوربا . ولما كان الباب العالي سيحاول ان يسترد سورية فان من الواجب عليكم العمل السريع

« وتنقص جيشكم في الشام الآن معدات الدفاع فهو يحتاج الى ٢٠ بطارية وفرقتين مهندسين و ٣٠٠ مستشفى وعدد كاف من الاطباء وان يكون عدد الجيش العامل ١٣٠ الفاً ماعدا الربان المتطوعين والواجب التمسك بصداقة رشيد باشا والولاة الآخرين »

وكتب المستر فارن قنصل انكلترا في دمشق سنة ١٨٣٥ الى وزارة خارجية دولته — حينما اراد ابراهيم باشا احتلال بيره جك على الفرات يقول « ان هذا الاحتلال يجعل لمحمد علي النفوذ الكبير في بلاد العراق ، واذا وصل العراق بدمشق بمرابط عسكرية فانهُ يضع لحاماً يلحم به بين القبائل » . وارسل اللورد بامرستون وزير خارجية انكلترا الى الكولونيل كامبل يوم ٨ ديسمبر سنة ١٨٣٨ المذكرة الآتية لابلاغها الى محمد علي وهذا نصها :

« أكلفك ان تبلغ محمد علي باشا بأن حكومة جلالة الملكة تلقت تقارير عن حركات الجنود المصرية في سورية وبلاد العرب وهي تدل على انهُ ينوي ان يبسط سلطة مصر الى جهة خليج فارس وولاية بغداد فابلغ الباشا بكل صراحة ان الحكومة الانكليزية لا تستطيع ان تنظر دون اكتراث الى تنفيذ مثل هذه المشروعات »